مع قصص وقصائد المسابقة الأدبية

بذر الاراضي الواهبة

دراسة وتحليل

بقلم
حسين راشد الصباغ

ان اللون الذاتى الحزين هو الصفة الغالبة على شعر على ، وهذا نتيجة طبيعية للواقع المرير المعاش الذى صبغ حياته ولون نفسيته بطابع حزين متشائم ٠

وهذا بطبيعة الحال لم يمنعه من أن يجنح الى الواقعية في معالجته لمشاكل مجتمعة وقضاياه ، التى استطاع ان ينفعل بها ، وان يعيش احداثها ومن ثم ان تجاربه تعانق تجارب الآخرين ٠ وتذوب فيها ٠

وقصيدته هذه قصيدة طويلة ، وتغلب عليها نغمة حزينة رتيبة ٠ ويهمنا ان نقف عليها وان نعرف مابها من أصالة وجدية في الشعور وتجديد في طريقة الاداء ٠ ومدى ماتمتع به من وضوح في الرؤية ، بحيث تكون بعيدة عن كل ايهام أو غموض ، من شأنه أن يعطل سير خطها الواقعى ٠

يبدأ قصيدته : ـ

يا بأسنا الدامى على مر العصور
يا حزن أحبابى ، ويا صمت القبور
يا أيها البؤس الذى
عاشت به الايام قهرا في البيوت

نبرة حزينة مريرة تغلف هذه الاشطر ، انها تصور لنا وجودنا وكياننا خلال عصور التاريخ ، حيث كان مجروحا ومذبوحا ، قد اهرقت دماؤه وسلبت حياته ٠ كان كيانا ممزقا ومستعبدا يرسف في قيود الذل والهوان ٠٠٠ وحزن الاحباب وصمت القبور وما توحيه من وحشة وخوف ، يكونان شيئا واحدا متحركا هو اطار الصورة الذى يعيش داخله هؤلاء البائسين ٠

والايام تبدو حزينة ومقهورة وهى ذات حركة شاخصة ، كما انها تعكس حزن الانسان وواقعه البائس٠ ظلت هذه الايام أحقابا طويلة تترى وهى حزينة وكئيبة ، وان ما يلاقيه الانسان من قهر وظلم واستبداد ينعكس عليها ٠ التشخص والتسجيم أصفى على التعبير جمالا واضحا ٠

ويقطع علينا استرسالنا مع هذه الصور ، وبلا ادنى تمهيد :

لا ، لن نموت
فالشمس تشرق من جديد
رغم الظلام
رغم نعيب البوم في شتى الجهات

هنا رفض تقريرى صارخ ، للواقع المعاش وتمرد وثوره على القهر واليأس ٠ والشمس هى الرمز الحى لارادة الانسان الخلاقة والصامدة التى ستنير حياة الانسان ، وتكشف عنه الظلم الذى يرمز له بالظلام ونعيب البوم ، ان الظلام لايمنع الشمس من ان تشرق وأن تنشر نورها في كل الارجاء ، هنا اصرار وتحدى٠٠٠

الكادحون من الشعوب هم الحياة
والفجرآت ، الفجرآت
هذا الذى قالته اصداء السنين
واهتزت الاوتار في سمع الدهور
لصرخة الـ (يامال) في اللحن الحزين

الكادحون في كل أمة ، هم وجهها الناصع ، وهم يمثلون جوهر الحياة وصميمها ، وهم بسواعدهم سيخطون صفحات هذا الفجر ، التبشير بالفجر تلمسه في صرخة الـ (يا مال) الحزينه، التى تخلع الضلوع من مكانها ، انها صرخة اصيله ، انها تتوغل في احقاب بعيدة لتحدثنا عن عالم هؤلاء البحارة الكادحين ومآسيهم ٠ انها كلمات مشعة توحى بالامل في بزوغ الفجر المرتقب ، وهو امل الانسانية جمعاء وحلمها المنشود ٠ والدهر يسمع ويسجل ، والاوتار تردد صدى الاصوات المبحوحة التى تعكس الآمال والالام ٠

الفجر حلم قديم داعب مخيلة الانسانية ، ولازال ، وهو حقيقة محسوسة تلمسه تلك القلوب الرائعة،

وانه يعيش في ضمير الانسانية وفي خيال الشاعر ووجدانه · الشاعر هنا يتخذ من الغوص منطلقا للتعبير عن افكاره واحاسيس نفسه ، وواقع هؤلاء البحارة ومافيه من حزن وكآبة·

وسرعان ما يفسر لنا ويشرح :

حناجـــر
عانت مذاق الملح والطين ، وضجت بالانين
ياسوطها اللاهب ·· ياجرح المدى في الجبين
انى سمعت الجوع والآلام في اصرارها يعلو الطبول

ان هنـــاك سوطا لاهبا من الآلام والعذاب يغذى هذه الاصوات التى تصدر عن حناجر هؤلاء الكادحـــين المكدودين ، انها تعكس الجوع والالام التى حفرت جروحا وكلوما في نفوس هذه الجموع ، انها جروح تنزف دما متصلا ، بل انها بارزة ومحفورة على الجبين الانسانى ، ان جوعهم وعريهم وبؤسهم يعلو اصوات الطبـــول ويتقدمها · وهكـذا يعيش ذكريات الغوص ويتمثل حياة البحـــارة وما فيها من ظلم وعذاب اثقل كاهـــل هؤلاء البؤساء المحرومين · لقد تمثل الغوص وعاش أجواءه ·

وهنا تبرز صورة الجوع والالام ، وهى صوره متخيلة مجسمة · وقـد اعتمد هنا في صوره على اللغـــة ومظاهرها المختلفة :

ورأيت احزان الرمـال على الشطوط بلا دموع
وبلا انكسار
حتى آسى الطفل الممـزق في انتظار كنا نراه بلا متاع
يقوى على حمل العذاب
يجرى شراع الضحك في وجه الرياح

يرتبط الانسان بالطبيعة ويعبـر من خلالهـا عن قضاياه ومشاكله ، الرمال تصبح كيانا حيا تحزن وتتألم ولكنها قلما تشكو او تبين دموعها · لقد خلع الحياة على الرمال وجعلهـا تشارك هؤلاء البائســـين وتعيش همومهم ومآسيهم · تبـدو صوره ذات ايحاء قوى · ومثل هذه الرمال ، الطفل الذى ينتظر أوبة والده وقـد مزقه الالم وامضه الآسى ·· انه رغم حداثة سنه فهو يقوى على حمـــل العذاب المقيم المتصعل ، وهـو يسخر من مصائب الحيـــاة وارزائها ، انه اقوى من الالم واكثر صبرا عـــلى الشدائد ويرمز لاصـــراره بشراع الضحك الذى يجريه في وجـه رياح الحياة وعوامل الايعاقه · انه شراع لايبالى الانواء والرياح ، بل يهـــزأ منها ويسخر · ان هؤلاء الكادحين في مسيرتهم وكفاحهم هذا تشاركهـــم الطبيعة بجميع مظاهرها الخـــلاقة المختلفة وتبارك خطواتهم ،

وكذا نرى نجم الصباح
يسرى ·· يطوف على البـــلاد بلا انقطاع
ويرى المآذن والقلاع
يرى المزارع والحقول
فيمد للارض ·· (للعكار) من فيض الشعاع
وكذا يمد على السواحل الف آه
للبحر يحتضن الشراع ، وللقلـــوع
ويطل من عليا سماه
على بيوت ليلها الداجى يطول
الداء فيها والذبول
نول يحيك الهم دأبا والمرار
يأبى طواها ان يجوع
وقد تموت
من دون آه

صلة الناس بالطبيعـــة صلـــة مشتركة قوية ، حيث تبدو الطبيعة مرتبطـــة ارتباط وثيقـــا بالانسان ومشاركة له في آماله وآلامه ، وهـو يضفى على النجم ويسبغ عليـــه نظرة انسانية · يأخذ المعنى مـــن الطبيعة ويخلعه على شخوصه · وان الكادحين منشعبه شأنهم شأن الطبيعة الواهبة المانحة وما تملك من قدرات خلاقة وخيرة تسبغها على ابنائهـــا الكادحين · هذا النجم على صلـــة بهؤلاء الكادحين فهو يسرى ويسهـر مع المآذن والقـلاع ويفيض من نوره على الحقول الشاسعة الممتـــدة ، كما يرعى الكادحين ويعيش أحوالهم· حيث يبدو ليلهم طويلا جهما كما ان الذبول يعمل في اجسامهم ، والهـــم لديهم شيء متصل ومقيـــم ، وان هناك نولا يحيكـــه وينسجه بشكل دائب ومستمر · وهكذا تبدو آلامـه متجددة ، ويغلـــب عليهـــا طابع الاستمرارية والدوام · ورغـــم كل ذلك فان هذه النفوس أبية كريمة ، لاتعرف الشكوى أو الانكسار ، بـــل هى صامدة صابرة ·

ويظل يفسر ويشرح لنـا فيقول : ـ
يا ايها النجم المضمخ بالعطور
اما رأيت فتى البحار ؟
وسمعت (نهاما) ضرير
يبكى ·· يذر على الجروح
ملحا ، ويصرخ في السماء
صوت تصر له الضلوع :
(يا ايها الدهر الخئون
يا سارقا قوت الجموع
باعوا ودادى ، والوفاء
شيء محـــال
وانا الهضيم ·· انا الهضيم
حتى الممات
يا زارعا في الارض أشتات النبـــات
أنا الهضيم ،
وأنا الحياة ·· أنا الحياة ··

نلمس هنا حوارا وحوارا داخليـا · ويحـــاول أن يعـــرض لشخصيات تتجسد فيها تجـــارب معينة ، تكون عنصرا مهما في بناء القصيدة ·

انه يخاطب هذا النجم الساهر ، ويذكره بفتى البحـار وبصوت ذلك النهام الضرير ذى النبرات الحزينة ، التى تقطع الافئدة ، وتعصر الضلوع وتخلعهـــا من مكانهـــا · والآلام والتمزق والظلم الذى يعانيه هـــذا الضرير وأمثاله ، هى بمثابة جروح

مادية حقيقية ـ انها نزيف داخلي حقا ـ ان هذا الصوت الاصيل يعكس قصة هؤلاء البحارة وما فيها من كفاح وعذاب ٠

ان الضرير يسرد لنا صروف الدهر وفواجعه ٠ انه غول مفترس يأتي على قوت الشعب ومقدراته ، ويزيف ارادته ، ويقضى على كل عوامل الابداع والخلق عنده ، انه رمز حي للانسان وتطلعاته وثورته على ضعفه وجلاديه وبؤسه وآلامه ٠ انهم يبيعون وداده واخلاصه بعداوته ، انهم يسيمونه الذل والهوان ، ولا يقيمون اى اعتبار لكرامته او حياته٠ وهكذا يعيش في عراء دائم ومتصل ، لاشيء يستر آلامه ومآسيه ٠ وقد تكررت كلمة الهضيم مرات عديدة حتى يتسنى له رفع درجة الشعور في المقطع ٠ انه يناجي البحر ويبثه آلامه ولواعج نفسه،لقد كتب عليه ان يبقى هضيما الى ان يلاقى ربه ، وبالرغم من انه يمثل الحياة وما فيها من عطاء وبذل ٠ ويبقى هذا الصوت الاصيل يتحدى ويعترض وسوف لن يخمد ، بل سيظل يصارع ويغالب الى ان يكتب لصاحبه النصر ٠

ورغم كل هذه المعوقات ، فهو لا يكف عن الحلم بالفجر الجديد والتطلع الى بزوغه :

يا أصدقائي الطيبين
الفجر ماطل على قعر انزواء
ولهاث الارض يدرى كم قبور في اوال
اواه ، يافجر بلادى ٠٠
ياحنين النبع ٠٠ ياماء الزلال
(آه يا يبه ، وين الرجال)
واضيعتي ٠٠
والكل مشغول بداء

الفجر الذى تنشد الانسانية اشراقه ، يبدو انه امر صعب التحقيق ، ان لم يكن مستحيلا ٠ وانه لن يطل على زاوية مظلمة ترين عليها الظلمة والعزله ٠ ان نفوس هذه الجهة لم تعانق الحياة ، وانها لازالت مشدودة الى الطين ٠٠ وتطلعاتها قلما تسمو الى ابعد من مواطىء اقدامها ٠ ان هذه الجموع المظلومة ، سوف لن يتحقق حلمها ، الا اذا عانقت الحياة وقدمت القرابين والضحايا من اجل هذا الحلم الذى تنشده ٠ وكثيرا ماردد الشعراء هذا الحلم ، وبالاخص ابو القاسم الشابى٠

وتعبير الشاعر هنا تقريرى صارخ، وقد اختار الكلمات بعد كد وتعب ذهنى ٠ وهكذا نحن أمام قضية ذهنية ، بعيدة عن الشعور والوجدان (قعر انزواء ولهاث الارض) ٠٠ انه لم يوفق في اختيار المفردات المناسبة٠

قد تبدو الاشطر الاخيرة اكثر تأثيرا وايحاءا ، نظرا لبساطتها وعفويتها وعدم تعقد تركيبها ٠ يسيطر على نفسيته جو من التشائم الحاد واليأس القاتل ، وتتعثر رؤيته ، وقد نتجت عما رآه من مفاهيم مقلوبة وعوامل قاهرة لاقدرة لهم على مقاومتها والتصدى لها ٠ لقد افتقد الرجال الذين يتوقف على وجودهم مصير هذه الامة وانتشالها من واقعها المعاش هذا ٠

هنا واقعية مجردة ورمز قوى صارخ ـ ولكن من الواضح ان التجربة النفسية الحقة قد اختفت وحل محلها عمل الذهن البارد الذى نلمسه في هذا الوضوح والتقرير ٠

وبعد ، أن هناك ملاحظات أود تسجيلها قبل أن اختتم موضوعى ٠

قصيدته هذه مجموعة من الخواطر المنسابة التى حاولت ان تعبر عن مواقف وشخصيات معينة في قالب من البناء الفنى القائم على أساس وحدة القصيدة ، بحيث ان نهاية القصيدة وبدايتها وجميع مشاهدها تعطينا المعنى الكبير الذى ينشده الشاعر ٠ امتلأت قصيدته بكثير من التفاصيل الجانبيه التى لن يغير حذفها من القصيدة شيئا ٠ بل ان وجودها سبب تصدعا في بنائها العضوى ٠ مثلا يوم ان كنا صفار ـ وما يزال ـ

هذه لو حذفت لما حصل شيء ، لانها محشوة حشوا٠٠كما لاحظنا ان انتقاله في بعض اشطرة لايبدو طبيعيا، ٠٠ فمثلا بعد يا سارقا قوت الجموع ٠٠ نجد ان الشعور يرتفع بشكل قوى ثم ينخفض فجأة فيه من غير تسلسل أو تمهيد٠٠وهذا من شأنه ان يفقد القصيدة وحدتها العضوية ٠٠ وهكذا الكثير من مقاطعه افتقدت طابع التماسك والتلازم ٠٠ وظلت متناثرة ، ومتفاوته قوة وضعفا وهبوطا وارتفاعا ٠

وكانت بعض تراكيبه ثقيلة على اللسان ، لانه كان يفتعل اشتقاقات لغوية متكلفة ٠ لم يوفق في اختيار التعبير المناسب لتجاربه التى عرض لها ، وقد تكون التجارب التى عبر عنها اكبر من قدرته على التعبير لذلك فقد نشأ بعض الاضطراب في القصيدة ٠ كما أن هناك ضعفا من حيث الموسيقى ، وهذا يعود الى أنها من بحر الرجز ، وهو أقرب البحور الى النثر ٠ ورغم اختفاء النغم الخارجى الواضح ، فانها لم تفقد الهمس ٠ وقد غلبت عليها النزعة الخطابية وأمتلأت بالالتماعات الذهنية ، والقضايا الفكرية ذات الاستطرادات المملة ولكن رغم ذلك فقد امتلأت بالصور الموحية ذات التجسيم والتخييل ٠

ان قصيدته قد نتجت عن مكابدة ومعاشرة طويلة لواقع حياتنا الحاضر٠ وقد لمسنا فيها بعدا اجتماعيا واهتماما بمشاكل المجتمع ٠ وقد عبرت عن قضايانا المختلفة ، وكان بودنا أن تصب هذه الحقائق في قوالب شعورية ، فيها حرارة الشعور وقوة التجربة ، وبعيدة عن دائرة العقل البارد ، ومحيط الذهن الواعى ٠